القسم الثالث

فى نوادر بنى عامر

سبب عشق قيس لليلى العامرية

مرّ قيس يومًا على ناقة لابسًا حلة ملوكية ومعه زمرة من قومه فصادف ليلى مع نسوة من قومها يتحدثن فأعجبهن فاستنزلنه للمنادمة فنزل وعقر لهنّ ناقته وأقام معهن بياض اليوم، وكانت ليلى مع من حضر، فحين وقع نظره عليها لم يصرف عنها طرفًا وشاغلته فلم يشتغل، فلما نحر الناقة جاءت لتمسك معه اللحم فجعل يجز بالمدية فى كفه وهو شاخص فيها حتى أعرق كفه فجذبتها من يده ولم يدر، ثم قال لها: أتأكلين الشواء، قالت: نعم، فطرح من اللحم شيئًا على الغضى وأقبل يحادثها فقالت له: انظر إلى اللحم هل استوى أم لا، فمد يده إلى الحجر وجعل يقلب بها اللحم فاحترقت ولم يشعر، فلما علمت ما داخله صرفته عن ذلك ثم شدت يده بهدب قناعها، فذهب وقد تحكم عشقها من قلبه فاستدعته بعد ذلك وقد داخلها الحب فقالت له: هل لك فى محادثة من لا يصرفه عنك صارف، قال: ومن لى بذلك، فقالت له: اجلس، فجلس وجعلا يتحادثان حتى مضى الوقت، ولم يزالا على ذلك حتى حجبها أبوها عنه وزوجها من غيره.

* * *

تجربة ليلى لقيس بن الملوح

صادف قيس بن الملوح يومًا ليلى بنت مهدى وقد صبا إليها قلبه فأخذ يحدثها وتحدثه حتى أمسى فانصرف. فبات فى ليلة طالت عليه وجهد أن يغمض فلم يقدر فأنشأ يقول:

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزتنى إليك المضاجع

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع

وداوم زيارتها وترك إتيان كل من كان يأتيه غيرها إلى أن تملك الحب قلبيهما فأرادت يومًا أن تجربه فأخذت تصد عنه وتعرض بوجهها عن نظره، فلما رأى ذلك منها اشتد عليه وجزع حتى عرف ذلك فيه، فخافت عليه وقالت:

كلانا مظهر للناس بغضًا وكل عند صاحبه مكينُ

فسرى عنه الحزن وعلم ما فى قلبها، أما هى فقالت له: إنما أردت امتحانك والذى لك عندى أكثر مما لى عندك وإنى أعاهدك من الآن على حفظ العهد والقيام بالوفاء ولست مائلة بعد يومى هذا إلى أحد سواك حتى أذوق الموت، فانصرف فى المساء وهو أسر الناس بما سمع منها فأنشأ يقول:

أظن هواهـــا تاركى بمضلة من الأرض لا مال لدى ولا أهلُ
ولا أحد أفضى إليه وصيتى ولا وارث إلا المطية والرحل
محا حبها حب الألى كنّ قبلها وحلت مكانًا لم يكن حلَّ من قبل

* * *

مجنون ليلى وليلى والأمير

سمع أحد أمراء العرب بليلى ومجنونها فأمر بإحضارهما إليه، فلما وقفت ليلى بين يديه رآها فتاة هزيلة سمراء فلم يعبأ بها قط واحتقرها فتفرس المجنون بالأمير وقال: أيها الأمير لو نظرت إلى ليلى من طاقات أعين المجنون المبتلى لانجلى لك بمحبتها سرّ مشاهدتها، فسرّ الأمير وأعجب من ذلك الجواب.

* * *

قيس بن الملوح وأمه وليلى

قال يونس النحوى: لما خلط قيس بن الملوح وزال عقله وامتنع من الأكل والشرب صارت أمه إلى ليلى فقالت لها: إن ابنى جن من أجلك وذهب حبك بعقله وقد امتنع من الطعام والشراب فإن رأيت أن تصيرى معى إليه فلعله إذا رآك

يسكن بعض ما يجد، فقالت لها: أما نهاراً فما يمكننى ذلك ولا آمن على نفسى ولكن سأصير إليه فى الليل، فلما كان الليل صارت إليه وهو مطرق يهذى فقالت: يا قيس إن أمك تزعم أنك جننت على رأسى وأصابك ما أصابك فرفع رأسه ونظر إليها وتنفس الصعداء وأنشأ يقول:

قالت جننت على رأسى فقلت لها ... الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون فى الحين

* * *

افتضاح أمر قيس وليلى

ذهب قيس يومًا إلى بيت أبى ليلى ليقترض سمنًا يقرى به ضيوف أبيه فقال أبو ليلى: يا ليلى أخرجى ذلك السمن واقضى حاجة هذا الفتى، فخرجت إليه وسلمت عليه وجعلت تسكب السمن فى إنائه وهى تشكو ما لها عنده من الشوق، فلما سمع كلامها طاب قلبه فالتهى معها بالحديث إلى أن فاض الإناء وصار السمن يقطر على الأرض، وما زالا يتحادثان حتى غاصت أرجلهما بالسمن، فاستبطأها أبوها وناداها فلم تنتبه إليه فخرج ليكشف الخبر وقد أنكر أمرها فوجدها على تلك الحالة فغضب غضبًا شديداً ومنعها الزيارة وحجبها عنه خوف الفضيحة. فصار يغتنم غفلة الرقيب فيجتمع بها ويطفى ما بقلبه من الالتياع، فلما بلغه ذلك شكاه إلى الخليفة ابن مروان، فأمر عامله بقتله إذا هو زارها، فلما بلغ قيسًا ذلك تنهد وأنشد:

لئن حجبت ليلى وآلى أميرها ... علىّ يمينًا جاهداً لا أزورها
على غير شىء غير أنى أحبها ... وأن فؤادى عند ليلى سميرها

ولما زاد شوقه ذهب ليسترق النظر من ليلى فرأى الحى خاليًا فسأل عنها فقيل له: إنها سارت وقومها إلى جبل توباد، فقصد ذلك المكان وما زال يبحث عنها حتى لقيها فشكا لها وشكت له وأخذا يتناجيان ثم بكى قيس وأنشد:

أيا ليلى زند البين يقدح فى صدرى ... ونار الأسى ترمى فؤادى بالحجر
فلا تحسبى يا ليلى أنى نسيتكم ... فإن مدى الأيام ذكرك فى فكرى

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا وما هطلت عين على واضح النهر

فرقت له ليلى وضمته إلى صدرها، وبعد قليل ودعها وسار عائداً إلى أهله.

* * *

ذهاب قيس إلى الكعبة وزواج ليلى بغيره

لما هاجت من قيس علل الحب والغرام أشفق عليه جميع الأهل ورثوا لحاله وعرضوا على أبيه أن يأخذه إلى الكعبة عله يبرأ من علته، فأجابهم إلى ذلك وسار ومعه ابنه قيس، فلما بلغوا الكعبة قال له أبوه تعلق بأستار الكعبة، ففعل، فقال: قل اللهم يا من احتجبت عن العيون أرحنى من حب ليلى وأزل عنى هذا الجنون، فقال: أيها الإله الحى إنى تائب إليك عن جميع الخطايا إلا عن حب ليلى فإننى لا أتوب ثم أنشد:

يقولون تب عن حب ليلى وذكرها وتلك لعمرى توبة لا أتوبها

يقرّ بعينى قربها ويزيدنى بها عجبًا من كان عندى يعيبها

فيا نفس صبراً لست والله فاعلمى بأول نفس غاب عنها حبيبها

فحزن عليه أبوه وجميع الأهل والأصدقاء، ثم إنه هام فى عرض الفلاة، فلحق به أبوه وأراد القوم أن يأتوا به مكبلاً، فقال لهم: مهلاً مهلاً فقلبى عليل لا يقدر على العذاب، فتركوه وبكى أبوه شفقة عليه وقال له: يا ولدى إلى متى وأنت فى هذا الشقاء العظيم أما كفاك الجولان فى القفار حتى عدمت النشاط وصرت إلى الانحطاط فدع عنك هذه الأوهام وعد إلى العقل والرشاد، وما زال أبوه يشاغله بالأحاديث اللطيفة والعبارات الظريفة إلى أن راق ولان ورجع معه إلى الأوطان، وكانت ليلى قد تزوجت برجل يدعى سعيد بن حنيف فلما بلغ قيس ذلك الخبر اضطرب وأنشد:

وقد خبرونى أن ليلى تزوجت ولا بد لى من أن ألاقى حليلها

فإن كان مثلى لا ألمها على الهوى وإن كان دونى بئس ما قد قضى لها

* * *

هيام قيس ومكاتبته لليلى

ثم زادت آلامه وهجر الأهل وهام فى البرارى والقفار وهو يترنم بهذه الأبيات:

أنيرى مكان البدر إن أفل البدرُ وقومى مقام الشمس ما استأخر الفجرُ
ففيك من الشمس المنيرة ضوءها وليس لها منك التبسم والثغر
بلى لك نور الشمس والبدر كله وما حملت عيناك شمس ولا بدر
لك النظرة اللألاء والبرق طالع وليس لها منك الترائب والنحرُ
ومن أين للشمس المنيرة بالضحى بمكحولة العينين فى طرفها فتر

فرآه عن بعد رجل يدعى نوفل بن مساحق فسأل عنه فقيل إنه قيس بن الملوح وإنه ما وصل إلى ما وصل إلا من حبه ليلى، فقال: وأنى لى وصولاً إليه، قالوا: اذكر له ليلى فيدنو منك ويأتى آنسًا فرحًا، فتقدم إليه نوفل وسلم عليه وقال له بحياة ليلى التى هى عندك أعز الناس أن تنشدنى من نفائس أشعارك ما تشنف به مسمعى، فأنشده قيس قصيدته التى مطلعها:

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لم يعذى على الناس عاديا

فلما سمع نوفل شعره اهتز طربًا وقال: لله درك على هذه الألفاظ الرشيقة والمعانى البديعة الرقيقة، ولكن خلِّ عنك هذا الحزن واتكل على الله فهو قادر على نجاتك، فقال قيس: كيف أطيق الصبر وقد اشتعل قلبى بنار الهوى أيما اشتعال، فدعنى بالله أهيم فى وجدى ولا أهتدى إلى هداى، فتركه نوفل وسار وبقى قيس هائمًا ينشد الأشعار.

وكانت ليلى منذ تزوجت لا تنشف لها دمعة ولا تبرد لها لوعة لشدة وجدها وخوفها على قيس حبيبها فكتبت إليه يومًا تشكو حالها وختمت الرقعة بهذه الأبيات:

سلامٌ عليكم لا سلام ملامة ولكن سلام للمحب عطورُ
لقد عيل صبرى بعدكم وتكاثرت همومى ولكن المحب صبور
فصبراً على ريب الزمان وجوره لعل صروف الدائرات تدور

فلما بلغ قيسًا تلك الرقعة كتب إليها يقول: من قيس بن الملوح الهائم الوامق

إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح ليلى العامرية، ورد إليّ كتابك أيتها الحبيبة فقرأته طربًا بعابق شذاك وأنا لم أزل فى هذه القفار أهيم مع الوحوش والغزلان وحيداً ذليلاً أقاسى الضر والأحزان حتى صرت نحيلاً كالخيال من شوقى وكادت تقضى على تباريح الهوى والسلام.

فلما بلغ ليلى حال قيس وما يلقاه على النوى حزنت عليه وبكت من شدة الالتياع.

* * *

لقاء زوج ليلى بقيس بن الملوح

لما زاد وجد ليلى بقيس بن الملوح وهاجت لذلك آلامها صارت تبدى لزوجها صداً وإعراضًا فعجب زوجها لذلك وسأل فعلم كنه الأمر وأن قيسًا يهواها وتهواه وهو هائم لأجلها فى واسع الفلاة ينشد فيها الأشعار ويأنس بالظباء السارياث فى القفار، فاشتاق إلى رؤية قيس ومنادمته ومال إلى معرفته، فخرج يومًا للصيد فلقيه وهو فى روضة خضراء ينظر فى بعض الغزلان، فتقدم زوج ليلى وسلم عليه وأنشد يقول:

ومن عجب جنونك فى فتاة مزوجـة سـواك ولن تراهـا
أيا مجنـون كم تهـوى بليلى كـأن الله لم يخلـق سواهـا

فعلم قيس أنه بعلها فخر مغشيًا عليه ثم أفاق فأنشد:

بعيشك هل ضممـت إليك ليلى قبيل الصبح أم قبلت فاهـا
وهـل دارت يداك بمنكبيهـا وهـل مـالت عليك ذؤابتاهـا

فرق زوج ليلى لحالة قيس وحذره من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ثم عاد إلى الحمى.

* * *

كثير عزة ومجنون ليلى

قال المفضل بن الحسن: دخل كثير عزة على عبد الملك بن مروان فجعل ينشد شعره فى عزة وعيناه تذرفان، فقال له عبد الملك: قاتلك الله يا كثير هل رأيت أحدًا أعشق منك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، خرجت مرة أسير فى البادية على ناقة لى، فبينا أنا أسير إذ نظر إلى شخص فأكدته فإذا رجل قد نصب شركًا للظباء وقعد بعيدًا منه، فسلمت عليه فرد السلام، فقلت ما أجلسك ههنا؟ قال: نصبت شركًا للظباء فأنا أرصدها، فقلت: إن قمت له لديك فصدت فهل تطعمنى؟ قال: إى والله، فنزلت فعقلت ناقتى وجلست أحدثه، فإذا هو أحسن خلق الله حديثًا وأرقه وأعزله، فما لبثنا أن وقعت ظبية فى الشرك، فوثب ووثبت معه فخلصها من الحبال ثم نظر فى وجهها مليًا فأطلقها وأنشأ يقول:

أيا شبه ليلى لن تراعى فإننى ... لك اليوم من بين الوحوش صديقُ
ويا شبه ليلى لن تزالى بروضة ... عليك سحاب دائم وبروق
فما أنا إذ شبهتها ثم لم تؤب ... سليمًا عليها فى الحياة شفيق
فديتك من أسرٍ دهاك لحبها ... فأنت لليلى ما حييت طليق

ثم أصلح شركها وغدونا إلى موضعنا فقلت: والله لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل، فأقمنا باقى يومنا فلم يقع شىء، فلما أمسينا قام إلى غار قريب من الموضع الذى كنا فيه وقمت معه فبتنا به، فلما أصبح الصباح غدا فنصب شركة، فلم يلبث أن وقعت ظبية شبيهة بأختها بالأمس فوثب إليها ووثبت معه فاستخرجها من الشرك ونظر فى وجهها مليًا ثم أطلقها فمرت، وأنشأ يقول:

اذهبى فى كلاءة الرحمن ... أنت منى فى ذمة وأمان
ترهبينى والجيد منك كليلى ... والحشا والنعام والعينان
لا تخافى بأن تفاجى بسوء ... ما تغنى الحمام فى الأغصان

ثم عدنا إلى موضعنا فلم يقع يومنا شىء، فلما أمسينا صرنا إلى الغار فبتنا فيه، فلما أصبحنا عدل إلى شركه وغدوت معه فنصبه وقعدنا نتحدث وقد شغلنى يا أمير المؤمنين حسن حديثه عما أنا فيه من الجوع، فبينا نتحدث إذ وقعت فى الشرك ظبية

فوثب إليها ووثبت معه، فاستخرجها من الشرك ثم نظر فى وجهها وأراد أن يطلقها فقبضت على يده وقلت: ماذا تريد أن تعمل أقمت ثلاثة أيام كلما صدت شيئًا أطلقته، فنظر فى وجهى وعيناه تذرفان وأنشأ يقول:

أتلحى محبًا هائم القلب أن رأى ... شبيهًا لمن يهواه فى الحبل موثقا

فلما دنا منه تذكر شجوه ... وذكره من قد نأى فتشوقا

فرحمته يا أمير المؤمنين وبكيت لبكائه، ونسبته فإذا هو قيس بن معاذ المجنون فذاك والله أعشق منى يا أمير المؤمنين.

* * *

مصرع قيس بن الملوح

سمع قيس العامرى ليلاً هاتفًا يقول:

أمنعية بالموت ليلى ولم تمت ... كأنك عما قد أظلك غافل

فزاد منه لاعج الوجد وغاب عن الأبصار مدة من الزمان، فبينما كان أبو ليلى وبعض الأقرباء يبحثون عن مكانه وجدوه صريعًا بين القبور وإلى رأسه ورقة كتب فيها:

ألا أيها الشيخ الذى ما بنا يرضى ... شقيت ولا هنئت من عيشك الخفضا

شقيت كما أشقيتنى وتركتنى ... أهيم مع الهلاك لا أطعم الغمضا

كأن فؤادى فى مخاليب طائر ... إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

كأن وسيع الأرض حلقة خاتم ... على فما تزداد طولاً ولا عرضا

فجزع أبوها غاية الجزع وقال: والله لو أعلم أن أمره يفضى إلى هذه الحال لاحتملت العار وزوجته بابنتى ليلى.

ثم رأوا مكتوبًا على حجر ملقى إلى هذين البيتين:

توسد أحجار اليمامة والقفر ... ومات جريح القلب مندمل الصدر

فياليت هذا الحب يعشق مرة ... فيعلم ما يلقى المحب من الهجر

* * *

راشد بن صفوان وهيفاء العامرية

كان راشد بن صفوان يغدو على بنى عامر لألفة بينه وبين رجل فلمح جارية منهم يقال لها هيفاء بنت عبد الله بن عامر وكانت من أجمل نساء العرب، فغادره من حبها ما كاد أن يأتى على نفسه، ثم إن الجارية تزوجت بشخص من جهينة، فلما حملها إلى حيه وطال على الغلام الشوق وانقطاع الأخبار ذهب عقله فكان يسيح عاريًا فصادف صياداً قد اصطاد غزالاً فوقف ينظر إليه ثم بكى وأنشد:

وذكرنى من لا أبوح بذكره ... محاجر ظبى فى حبالة قانص
فقلت ودمع العين يجرى بحرقة ... ولحظى إلى عينيه لحظة شاخص
ألا أيهذا القانص الظبى حله ... وإن كنت تأباه فعشر قلائص
خف الله لا تحبسه إن شبيهه ... حبيبى فقد أرعدت فيه فرائصى

فقال له الصياد: دونك فحله، فتقدم إليه وقبله وأطلقه وأتبعه النظر حتى غاب، ثم قال للصياد ائتنى غداً فأتى فأعطاه عشراً من الإبل فأبى قبولها فأقسم عليه أن يأخذها فقبلها وانصرف.

* * *

العاشق المفارق

حدث بعض العرب قال: مررنا بماء وعليه صبية يتغاطسون وقريب منهم شاب عليه أثر الجمال إلا أنه نحيل من السقام فسلمت عليه، فقال: ممن الراكب، قلت: من الحمى، فقال: كم أقمت به؟ قلت: قليلاً، فتنفس الصعداء وأنشد:

سقى بلداً أمسى سليمى محله ... من المزن ما يروى به ويشيمُ
وإن لم أكن من ساكنيه فإنه ... يحل به شخص علىَّ كريم

* * *

مالك العامرى ومحبوبته

قال أحدهم: انصرفت من الحج فمررت بماوية وكان لى فيها صديق من بنى عامر فصرت إليه مسلمًا فأنزلنى، فبينا أنا عنده ونحن قاعدان بفنائه إذا النساء مستبشرات وهن يقلن: تكلم تكلم، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فتى منا كان يعشق ابنة عم له فزوجت وحملت إلى ناحية الحجاز، فإنه لعلى فراشه منذ حول ما تكلم ولا أكل إلا أن يؤتى بما يأكله ويشربه، فقلت: أحب أن أراه، فقام وقمت معه فمشينا غير بعيد وإذا بفتى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت لم يبق منه إلا خيال، فأكب الشيخ عليه يسأله وأمه واقفة، فقالت: يا مالك هذا عمك أبو فلان يعودك، ففتح عينيه وأنشأ يقول:

ليبكنى اليــوم أهل الود والشفق ... لم يبق من مهجتى إلا شفا رمقِ
اليوم آخر عهـدى بالحيــاة فقــد ... أطلقت من ربقة الأحزان والقلق

ثم تنفس الصعداء فإذا هو ميت، فقام الشيخ وقمت فانصرفت إلى خبائه فإذا جارية جميلة تبكى وتتفجع، فقال الشيخ ما يبكيك؟ فأنشأت تقول:

ألســت أبكى لصــب شف مهجتــه ... طول السقام وأضنى جسمه الكمدُ
يا ليت مــن خلف القلب المهيم به ... عندى فأشكو إليه بعض ما أجــد
أنشر تربـك أسـرى لى النسيــم به ... أم أنت حيث يناط السحر والكبـد

ثم انثنت على كبدها وشهقت فإذا هى ميتة.

* * *

مصرع عاشق على قبر عشيقته

قال جبر بن حبيب: أقبلت من مكة أريد اليمامة فنزلت بحى بنى عامر فأكرموا مثواى فإذا فتى حسن الهيئة قد جاءنى فسلم علىّ، وقال: أين يريد الراكب؟ قلت: اليمامة، قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من مكة، فجلس إلىّ فحادثنى أحسن الحديث، ثم قال لى: أتأذن فى صحبتك إلى اليمامة، فقلت: أحب خير

مصحوب، فقام فما لبث أن جاء بناقة بيضاء وعليها أداة حسنة، فأناخها قريبًا من مبيتي وتوسد ذراعها، فلما هممت بالرحيل أيقظته، فكأنه لم يكن نائمًا فقام وأصلح رحله وركب وركبت، فقصر عليَّ يومي بصحبته وسهلت عليَّ وعوْث السفر، فلما رأينا بياض قصور اليمامة أنشد قائلاً:

وأعرضت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدى مصلتينا

وهو فى ذلك كله لا ينشدنى إلا أبياتًا معجبة فى الهوى، فلما قربنا من اليمامة مال عن الطريق إلى أبيات قريبة منا، فقلت له: لعلك تحاول حاجة فى هذه الأبيات قال: أجل، قلت: انطلق راشدًا، فقال: هل أنت موفٍ حق الصحبة؟ قلت: أفعل قال: مل معى، فملت معهُ، فلما رآه أهل الصرم ابتدروه، وإذا فتيان لهم شارة فأناخوا بنا وعقلوا ناقتينا وأظهروا السرور وأكثروا البر ورأيتهم أشد شيء له تعظيمًا، ثم قال: قوموا إن شئتم، فقام وقمت لقيامه حتى إذا صرنا إلى قبر حديث البناء ألقى نفسه عليه وأنشأ يقول:

لئن منعونى فى حياتى زيارةً أحامى بها نفسًا تملكها الحب
فلن يمنعونى أن أجاور لحدها فيجمع جسمينا التجاور والترب

ثم أنَّ أنة الأسى ووقع ميتًا إلى الأرض، فأقمت مع الفتيان حتى احتفرنا له ودفناه، فسألت عنه فقالوا: ابن سيد هذا الحى وهذه ابنة عمه وهى إحدى نساء قومه وكان بها مغرمًا فماتت منذ ثلاث سنين، فأقبل إليها وقد رأيت ما آل إليه أمره فعدت والله وقد انفطرت مرارتى من الحزن عليه.

* * *